

الموروث الحضاري الشعبي وثقافة المجتمع العربي

بولعراس فجيريتا

جامعة تبسة

الملخص باللغة العربية :

ارتأينا الحديث في هذه الأسطر عن مصطلح الأدب الشعبي وحدوده ومضامينه وعلاقته بالأدب العامي والفولكلور وكيف أنه يلعب دورا هاما في التعبير عن أساليب الحياة المستمدة من الإطار الثقافي الذي يعيش فيه الأفراد من خلال العادات و التقاليد والأفكار التي يشترك فيها الكل والتي تشكل أبعادا ثقافية مستمدة من التجارب المختزنة والممارسة والمتناقلة باعتبارها تراث للمجتمع باعتماد أسلوب السرد المباشر مع إعطاء الحجج و البراهين على كل رأي قيل .

summary

We have tried to speak of the term "popular literature"; limits and contained, and its relation to public literature and the folclore.

How it plays an important role in expressing the different lifestyles from the cultural setting in which people live, based on tradition and common ideas that constitute cultural dimensions from experiences stored as a legacy of society. All this by using direct narration and giving evidence of the points of view cited.

تمهيد:

يعتبر الحفاظ على الموروث الشعبي مطلباً تسعى إليه كل الدول وتتنافس من أجل الحفاظ على هذا الجزء المهم الذي يعد من ثقافتها ، فهو تجسيد لحضارة الشعوب ، والحفاظ عليه إثبات مادي على الأصالة ، فالمتتبع للحياة الثقافية العربية يشهد عدة ظواهر لها أهمية ولا يمكن إغفالها أو تجاهلها ، وهي مظاهر ترصد الثبات والتغير تارة والاتفاق تارة والاختلاف تارة أخرى ، والصمود والتطور تارة أخرى ، والإيجاب والسلب تارة أخرى في الظواهر الاجتماعية والثقافية المختلفة. وما ينبغي ملاحظته في هذا الشأن هو الوعي بضرورة التأصيل و إحداث التوازن بين هذه الظواهر خاصة منها ظاهرتين : المأثورات الشعبية والفولكلور.

ولعل ما يراوده في هذه المصطلحات هو الفنون الشعبية والتراث الشعبي ، ولذلك سنحاول تتبع الأدب الشعبي والتعرف عليه حتى تنضج الرؤية أمامنا.

والمشكل الذي يطرح نفسه : ما هو الأدب الشعبي؟ وماهي حدوده ؟ وهل يمكن أن يكون له علاقته بثقافة المجتمع المتداول فيه ؟

أسئلة يمكن الإجابة عنها إذا تعرفنا على هذا الأدب و حدوده وكيف تم رصد الثقافة من خلاله.

مصطلح الأدب الشعبي وحدوده:

تحديد هذا المصطلح في حقيقة الأمر ليس أمراً سهلاً ، فهو ميدان متسع ورحب ، قد يبدو للوهلة الأولى سهل المعنى ، ويمكن تحديده بشرحه في كلمات مختصرة وبسيطة فهو : «التعبير القولي المأثور عن ثقافة المجتمع» أو هو "تعبير المجتمع الشعبي عن نفسه عن طريق كلمة .»

لكننا نجد الدكتور محمد تقي يعبر عنه بثلاث مصطلحات شائعة في ظاهرها متشابهة ولكن مختلفة في معناها وهي:

✓ الأدب الشعبي

✓ الأءب العامى

✓ الفولكلور

وللأعراف على هءه المصطلحات ءلالها وءب علنا اسأراض مفهوم اللغة والكلام واللسان واللغة اللهجة.

*ولءلك فالأءب العامى يسأءم اللهجة ءارئة وهو مقصور على ءائرة الإقللمة اللى اسأءم هءه اللهجة وهو يعبر عن اءاماماء مءلمة مءصورة فى نطاق أصحابها كما أنه مرأبط بالواقع المعاش وىأناول الموضوعات الشائعة الرائنة ءاا الاءام الوفى كما أنه يسأءم لهجات مءلمة لا أرأفى إلى مسأوى اللغة العربية وهو معأم على المشافهة

أما الأءب الشعمى فهو «عملمة الأجمع اللى أأم على مءى الزمن لمجموعة رواىاء أو أءبار» كرواية عنأرة ابن شءاء ءىأ من مارأل مأنأرة فى موضوع واحد أءرس الشءصمة وأءكمىها.

كما أنه أىضا الأءب الءى ىأناوله الناس شفويا لا كآابا من زمن لأءر ولءلك يعأبر بمءول المؤلف أو القائل نظرا لأناقله فنأأبره «الأءب الءى ىأأرك فى أألفه أكثر من فرد» ، كما يعرفه البعض أنه «أءب العمال والفلاءىن» فهم يسأعملون الأقوال المأأورة أأنا عملهم كما أنهم ىلقون الشعر وىغنون الموال ومءكون القصص والءكاىاء الءرافمة المأنوعة كى لا ىءسوا بالأعب ولأنه أءب العمال والفلاءىن فقد عرف على أنه «أءب الطبقات الكاءة» والطبقات الكاءة أو العاملة مكان أواءها هو القرى والأرباف ولءلك هو «أءبالرف» أو «الأءب القومى»

وهنا لا مءكنا الءزم أن هءه الأعرىفاء أكىة مئة بالمئة ، فالأءب الشعمى لا ىأصر على الطبقة الكاءة أو أصحاب الرف والفلاءىن فقط ، بل هو أءب العامة ىأناوله كل أفراد المءمع كىبرا وصغىرا ، مأفقا وءاهلا فى الأعبىر عن أءربته ءىاءة عابرة ، قد أكون مأأوءة من زمن مضى ، وأم أءلىها ومءارأها أءب الوقت الءى قىلأ فىه.

ولءلك مءكن أن نمىز الأءب الشعمى بأصفاء معىنة:

اللغة: فاللغة المسأعملة لىسأ بالضرورة العامة «فهى لغة قصص مسهلة أو مىسرة، أأى أكاا أأارب العامة فى الشكل الظاهرى، أى أنها لغة قصص راعأ السهولة فى إنشائها».

وكما هى لغأه نمء مواضعه عامة أمس كل الأفراد وأءارهم وموضوعأهم العامة والاءماعمة والإنسانمة.

إضاافة إلى ءلك قد أكون الأءربة ءقىقة وأأسم بالواقعة ، فىسأغل فىها نوع من الءوارق والءىال أسمى إلى الإباء والرقى المطلوب ، ولىأسنى لقائله أن ىأقق ما ىأمنى وما ىرءوه من الطبعمة.

ولءلك فى معلمىن أساسمىن مءكن أن نقىس الشعممة وهما:

«الأنشأار أو الأءال التراثمة والءلود»

فالعمل الفرءى الأءبى أو الشعمى ىأسنى له الأنشأار على مسأوى الأمة والءلود عبر الزمن بالأأاعل والمشافهة ، وهو ما نألق علىه الأءب الشرعى.

كما أنه «الأءب المعبر عن نفسمة الشعب ، الهاءاف إلى ءىره ، وأأأمه سواء أأأ اللهجة العامة أو الفصحى وسمة للأعبىر ، عرف قائله أو لم يعرف، ءون أم لم ىءون» فكل ما يعبر عن نفسمة الفرد والمءمع وىأم أناقله ءون قواعد أو أساسمىاء أو مءءوءاء ، فهو أءب شعمى لأنّه ىرءع إلى الشعب بالءرئة الأولى ، إضاافة إلى «أنه الأءب الءى ىروى وىكأب أو ىأطىء باللهجة العامة ، سواء عُرف قائله أو كان مءهولا مأوارأا عن الءىل السابق أو أنه من صنع معاصرمىن».

ولذلك فكل ما رجع إلى الشعب ولم يعرف قائله، فهو شعبي والسؤال الذي يطرح نفسه: هل الأدب العامي هو الأدب الشعبي؟

والإجابة عن هذا السؤال يكون أولاً بتعريف الأدب بمعناه العام فهو «التعبير بأسلوب رفيع يراعي فيه انتقاء الألفاظ والتراكيب واختيارها وإن هذا التعبير ينبغي تطبيقه على الأدب الشعبي أيضاً ومن ثم فليس كل ما قيل بوزن وقافية وبلهجة عامية سمي أدبا شعبيا.»

ولذلك وجب التمييز بين الكلام العامي والأدب الشعبي، فالأدب العامي يستعمل للمعاني الشائعة إضافة إلى أفكاره السطحية وبلهجته العامية والتراكيب الشائعة دون ابتكار أي معنى جديد أو صور فنية، فيكون أسلوبه أشبه بالرديء. أما الشعبي فعلى سذاجته لا يخلو من الصبغ الفنية والمواهب الحساسة فيختار الألفاظ المعبرة ذات الأنماط الفنية والمعاني الجميلة والدقيقة، فكلما عرفت أن من صفات الأدب الشعبي السذاجة والعفوية، فهو بذلك «افتعال عاطفي أو فكري يتخذ اللهجة العامية أسلوباً له في التعبير، تطفئ على معانيه السذاجة التي يتميز بها ابن الشعب المحروم من الثقافة، ولكنها سذاجة لا تخلو من إرهاب الحس وبراءة وعفوية في إطلاق المشاعر والأحاسيس، وصدق يتجلى في استعمال الألفاظ والأساليب واختيارها، أما بالنسبة إلى كون الأدب مجهول المؤلف أو معروفة، مطبوعاً أو غير مطبوع، فإن مجهولية المؤلف كانت ميزة للأدب الشعبي قبل الانصراف إلى تدوينه وطبعه»، فنحن نبحث في الأدب الشعبي عن الأقوال المأثورة من أمثال وحكم ردها الشعب، حملت في ثناياها روحه وطبيعته، وعبرت عما يخالجه وما يهيمه في حياته اليومية فقد قال عن الأمطار والعشب الأخضر.

من عام عشبة خضار ما صبت امطار

أي منذ غياب عشبة خضار غابت الأمطار

والمثل «مأخوذ من حكاية كانت تروى في القدم عن فتاة تدعى عشبة خضار فاستعانت بالجنيات المحبات للبشر فهطلت الأمطار على البلد المصاب بالجفاف فهم الخير بتلك الأمطار حتى لايزال يذكرونه»
فالأمثال صيغت في أشكال فنية عبرت عن حكم بليغة في معناها شديدة في مبنائها فعندما قال الشعبي المثل (أصحابي كون صبار وأصبر على ماجراك أرقد على الشوك عريان حتى يطلع نهارك)

هو مثل عن الصبر وقوة الاحتمال فكان حكمة بليغة في الصمود وتحمل مشاق الدين حتى يأتي الفرج.

ف«المثل الشعبي خلاصة حكمة المجتمع فهو من حيث المضمون يحاول تمثل تجارب عريقة تمتد آلاف السنين»

والمثل (حامل ومرضعة وهز أربعة) فاستعمال السجع في (مرضعة وأربعة) نوع من أنواع البديع والظروف التي ضرب فيها المثل لنا صورة المرأة في وجوه عدة لحبها إنجاب الأولاد ومدى قوتها وصلابتها أما في الظروف الراهنة ونظراً لصعوبة المعيشة فهو استهزاء لمن تحب الأولاد وحالتها الاجتماعية رديئة فهو يعبر عن التجربة المعاشة.

كما نجد أمثال أخرى تعبر عن النكتة

كأن يقول الشعبي (مسعود إذا هدر حصل وإذا يسكت قتلو البصل) وقد قيل هذا المثل بعد حكاية أو نكتة ومفادها (أن مسعود سرق دجاجة جاره عندما انتهى اللحم المشوي ولم يكن عنده المال ليشتري فبعد أن ذبحها ونظفها وطهاها وجدها صغيرة جداً لكنها لبت حاجته وفي الصباح سمع الجار وهو يصرخ وينوح على الدجاجة التي بحجم كبير وجمال خارق

وتبىض فى الوم ببضفن فما كان من مسعود إلا أن بسكأ وىكأها فى داخله لأن صاأب الدجاجة يكأب وقد كانت صغيرة فإذا قال الأقفة تبفن أنه من سرقها وإذا سكأ مات من الغىض)

وهناك أأاز شعبفة بطرق ففة وصور إبداعفة جد رافعة فالشعمى يطرح اللأز الآف فىقول : (عند الصمد قال : أأ اسمعوا فاشهود بعفف شفت الأفة بلا راس وإذا كأبأ قأعوا زنودف أف فدف) فالنعم الموأود فى (شفت ، كأبأ) و (اسمعوا اقأعوا) نغم موسففف فعبف عن صور بفاففة مأألفة.

ولفس المأل والأكمة والنكأة واللأز هم ضروب الأدب الشعمى فقط وإنما هناك الشعر الشعمى والأأافى الشعبفة ، فقد قال الفرد أأمل الكلام فى مواضع مأنوعة وأم أأفن هذا الكلام وإعطاءه نغما أاا مازال فأأول لأأ فى الأعراس والمسرات والأفراح.

وكأأال على ذلك : ما فىولة مأمد بن عزوز فى مكر النساء و دهائهم :

لأأامن سر النساء بلاك نورفلك

ولؤ مبسوطفن بالزهو قبالك

إذا نأفؤه بالأواب ونصأه لفك

أاها شؤفة ناقصة نصبو هالك

ففهم الشعر أو الأغففة الشعبفة فسألزم فهما واعفا لبفئة المأمع وعاداته وأقالفده وأارفأه ، وكما الأدب الفصفأ فأأاف إلى الففسرات ، فإن الأدب الشعمى بما فىه الأغففة والشعر فأأاف إلى الشرح والففسفر.

هذا ما قفل فى الشعر الذى عأ فى بعض الأحيان أغففة أم أأفنفا وأكرارها لأصأ أغففة فأم أأولها فى الأفراح والمسرات والأقول والاعأماعات.

ونأد أفضا السفر الشعبفة الفف فأأزأ فىها فنون كأففة كالرواففة والعزف والغناء والأأمففل أأفانا كسفرة «سفف بن ذف فزن والزفر سالم وعأرة بن شأاد العبسف والأأاهر ببفرس والأمفرفة ذات الهممة وأمزة العرب أو أمزة البهلوان وعلى الزففق وألف لفلة ولفلة وسفرة بنف هلال. ...»

أما القصص الشعمى فهو فى أغلب الأحيان فىصور لنا صراع الأفر والشر ، فقد فكون بألها إنسان عافف فى أغلب الأوقات هو مرأة أأارب الشر لأصل إلى الأفر وأسمو بالألا وأعفش فى القصور وأأزأ من السلأان أمفر البلاد فىقضى على الأشرار بأأأصار الأأفار.

فأكون قصصا أراففة ذات طابع أفالف فعبف عن الواقع المأاش بأأأل الأففات فى أأوفر الأأأا وإصلاأ الأأأاء وأأففق مرامف القاص أو بأأأل الأفوان أو الغفلان وقد أهأم بمأل أو أكمة أبقى مأأولة فى مأأمعنا أعبف عن أأارب مأألة.

أما الفولكلور فنأف فى بعض الأحيان نسفف الأأا الشعمى بـ "الفولكلور" وفرف بعض الأارسفن أن أأأأل كلمة فولكلور بالأأب الشعمى ، وفرف البعض الأأر أن «الفولكلور والأأب الشعمى شفاء وأأد لأن الشعر الشفافف مأور كل منهما» ، وربما هذا فدل أنه لا انفصال بفن الأأب الشعمى وبقففة فروع الأأا الفنى ، وأن هذا أأب وذاك أأا ، فالأأب الشعمى هو هذا«الفن الذى أنأأأه أأاهر الشعب بلأفها وأأاوله على مر القرون ، أم صار فى أارفأه الأأف فأم الأأب الفأرة الوطنفة أمف كانأ العامفة أأاه» ، ومن هنا نأأره أأر من الفولكلور ، وأارفأه بعض أارفأ الفولكلور»

ومن خلال ما قيل نستطيع القول أن الأب الشعبي ليس أدبا عامي ، وإنما هو فولكلور وتراث حضاري يعبر عن تاريخ جماعة ما بإسقاط تجاربهم على الحياة في أزمنة مختلفة ويتجارب أخرى غير التي كانت الأدب الشعبي وثقافة المجتمع:

كما عرفنا الأدب الشعبي هو تراث كل شعب وهو جزء لا يتجزأ منه ، فهو شكل ثقافي متميز يعكس الخصائص البشرية العميقة الجذور ، ويتناقل من جيل إلى آخر حيث تظهر عليه تغيرات حسب التجربة المعاشة ولذلك نعد تراث اجتماعي يشمل :

تراث الموروثات الشفهية كالحكايات والأمثال والأزجال واللهجات.

تراث الفنون الشعبية كالغناء والموسيقى والرقص و الأهازيج.

ورغم أنه إنتاج عربي شعبي بسيط ولا ينتمي لعصر محدد أو بقعة محددة أو شخص بعينه أو جماعة معينة إلا أنه مركب ثقافي معقد ، فيه الكثير من رواسب الزمن و الحياة والسلوك ، فالعادات والتقاليد والأفراد المشتركة ضمن المجتمع تشكل أبعاد ثقافية مستمدة من التجربة في حد ذاتها مختزنة فيهم متناقلة جيل بعد جيل ، والدارسون يرون «أنّ للثقافة جانبين أساسيين ، يكمل كل منهما الآخر ، الجانب الأول مادي يظهر في أسلوب المعيشة ، والأدوات التي يستخدمها الناس في قضاء حاجاتهم المختلفة ، و الطرق التي يخضعون بها للبيئة كي تلائم حياتهم ، كأنماط العمل والزري ، والمأكل ...» ، وأما الجانب الثاني وهو ما يمكن تسميته بالجانب المعنوي أو الروحي» ، فمجموع العادات والتقاليد التي يحتفل بها المجتمع والتي يتوارثها الناس ، والقواعد والقوانين التي تحكم حياتهم وتحدد علاقاتهم هي ثقافة من جانب ما ، كما هي الأساليب الفنية التي تعبر عن جوانب مختلفة من حياة المجتمع هي ثقافة أيضا ، و«الثقافة ليست ظاهرة عضوية يمكن أن يراها الإنسان كما يستطيع أن يرى مظاهرها المادية أو حتى مظاهرها المعنوية» ، وإنما مضمونها ظاهرة نفسية تمتد إلى العقول والوجدان ، لا تظهر من خلال الأفراد ، بل تتجلى في أفكاره واستجاباته الثقافية وأنواع سلوكياته وحصيلته مكتسباته وخبراته التي يحصل عليها في الإطار الاجتماعي.

فأول ما يكتسبه الفرد اللغة التي تبنى ثقافة المجتمع ، فاللغة الشعبية تختلف عن اللغة الأدبية ، فهي أكثر تحررا منهما ، فلغة المثل أو اللغز أو النكتة أكثر سلاسة من اللغة الأدبية ، حيث تتقدم أدوات الربط والجميل الاعتراضية وتنسجم بالتغيرات المختزنة وتقف دائما عند الساكن ، كما أنها تكتفي بالرمز والإشارة ، فقد يكون مثل ما كفيل بإعطاء ثقافة أخلاقية أو تربية لفرد أو شخص يعمله على المجتمع.

أما القصص أو الحكايات فهي أنماط تعبر لنا عن رؤى اجتماعية لأصحابها «على تباين وعيهم واختلاف توجهاتهم وتنوع مواقفهم فضلا عن نوعية تكوينهم الثقافي ودرايتهم بالجمال الثقافي» ، فما من مواطن مهما بلغت درجة الأمية عندها ابتعاده عن الآداب الرسمية إلا شملته آثار الثقافة الشعبية.

وما من مواطن بلغ علمه ومكانته إلا وقد بلغت آثار هذه الثقافة التي تعد مظهرها من مظاهر الأصالة الوطنية.

فالموروث الحضاري الشعبي كما يكون لنا مجموعة من العلاقات الاجتماعية ، فهو يوفر لنا وظائف تربية ونفسية وإبداعية وسياسية تخدم بالدرجة الأولى المجتمع وبالدرجة الثانية فهي تعبر عن: القيم السائدة والعادات.

الموروث الحضاري الشعبي يعكس لنا صورا جمالية وانعكاسات وجدانية أو عقلية، فهو تحصيل حاصل لعملية الأفكار والقيم والمعتقدات والعادات التي تكون كيان الإنسان.

في الجانب السلوكي والمادي ، الموروث الشعبي يقدم لنا السلوكيات التي يستنكرها المجتمع ويدعوا إلى الالتزام بسلوكيات معينة وضرورة التحلي الدائم بها «فالمجتمع إذا كان يفرض على أفراده نماذج معينة من السلوك ، ويضع لهم حدودا معينة لا يتجاوزونها ، وقد لا يتقبلونها أحيانا ، فإن عليه أيضا إذا أراد أن يستمر في ممارسة سلطته عليهم أن يهيء لهم ثقافة الأسلوب الملائم للتنفيس عن مشاعرهم والتعبير عن أفكارهم والتخلص من أعباء الحياة اليومية» وذلك بهروب الفرد إلى نشاطات أو ممارسات يومية ، قد تأخذ أشكال الرقص أو مجالس السهر أو بعض الألعاب والمسابقات في الاحتفالات من أعراس وختان وأعياد ميلاد وما إلى ذلك.

فالحكايات الشعبية أكبر مثال على ذلك ، فهي مليئة بالأبطال ، والشخصيات الذين ينالون المكافآت على أعمالهم وسلوكاتهم الطيبة وأخلاقهم الحميدة ، وهذا يجعل روح الجماعة تتبلور والتعاون بين الأفراد يعم ليتمكنوا من العيش وقضاء أحسن أيام حياتهم.

نحن لا نجزم أشد الجزم أن الأدب الشعبي يكون ثقافة الفرد، وإنما هو جزء أو عنصر هام في الحياة يخدم جانباً من جوانب الحياة ليس إلا وتبقى عوامل الثقافة متعددة وكثيرة حسب نوعية المجتمع الذي نتواجد فيه.

هواش البحث:

- (01)أحمد مرسي ، الأدب الشعبي وثقافة المجتمع ، دار المحروسة مصر ، ص 10
- (02)المرجع نفسه ، الصفحة نفسها
- (03)المرجع نفسه ص 11.
- (04)محمد دهني ، الأدب الشعبي العربي مفهومه و مضمونه ، مطبوعات القاهرة ، فرع الخرطوم ، 1972 ، ص 62 05)- المرجع نفسه ص 63
- (06)المرجع نفسه ص 66
- (07)المرجع نفسه ص 66
- (08)المرجع نفسه 68
- (09)أحمد مرسي ، الأدب الشعبي ثقافة المجتمع ، ص 12
- (10)محمد دهني ، الأدب الشعبي العربي ، مفهومه و مضمونه ، ص 73، 74
- (11)عامر رشيد السامرائي، مباحث الأدب الشعبي .وزارة الثقافة و الإرشاد ، العراق :1974 ، ص 15.
- (12)أحمد مرسي، الأدب الشعبي ثقافة المجتمع ، ص 15.
- (13)عامر رشيد السامرائي ، مباحث الأدب الشعبي،ص12.
- (14)أحمد مرسي ، الأدب الشعبي ثقافة المجتمع ، ص16
- (15)قادة بوتارن ، الأمثال الشعبية الجزائرية ، تر : عبد الرحمان حاج صالح ، مدير معهد اللسانيات ، الجزائر ، دار الحضارة ، ص 21.
- (16)حلمي يدير ، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، دار لوفاء لدنيا الطباعة ، النشر و الإسكندرية ، ص41.
- (17)المرجع نفسه ، ص 52.
- (18)أحمد رشدي صالح ، فنون الأدب الشعبي ، دار الفكر ، مطبعة الهناء ، ط1 ، مارس ، 1956 ، ص 14. 19)-المرجع نفسه ، ص 15.
- (20)أحمد مرسي ، الأدب الشعبي ثقافة المجتمع ، ص 29.
- (21)المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
- (22)عبد الحميد حواس،أوراق من الثقافة الشعبية ،مركز البحوث الشعبية للدراسات العربية والافريقية ،القاهرة ، ط1، 2003، ص69.
- (23)أحمد مرسي ، الأدب الشعبي ثقافة المجتمع ، ص30.